السنة الثامنة والاربعون
ايار — حزيران ١٩٥٥

على اقدام مريم الطاهرة

بقلم الاب اغناطيوس خليفه اليسوعي

بين ذلك الابن وتلك الام من يضع حاجزاً ؟ ايستطيع لسان ان يقول: يسوع دون ان يتم معه وإثره في هدوء الصمت : يا مريم .

وانها مريم ! هي من الطهر كله ومن الجمال كله ، ومن اعماق نفسها المقدسة ، هي ترقّ الى الله لا محدود ، تجنح اليه ارادتها ، وتهتف باسمه الفاظها ، الازلي في كيانها له مقر ومبيت . لقد عرفت كيف تلتقيه يوماً غبّ يوم في اسطور الاسفار المقدسة ! ولقد احبته كثيراً .

وكل ما فيها صفاء ! على شفف نفسها الفريدة الطهر تنعكس اسرار الثالوث فواقه العجيبة .

وانها مريم ام يسوع ! كذا قُدر لها النصيب الاوفر . فلم يكن لعدوّ البشر عليها سلطان ؛ غُمست بآلام ابنها ، قبل الامه ، فاذا هي نقية من وحول الاثم بريئة من لذعة الشرّ . انها البريئة لانها ام البريء الاول والاخير . ويودّ الضمير ونقاء الفكر ، اعدها الله لتحمل ابنها الى البشرية ويكون به الخلاص .

٥

يشهد لها الكتاب : انها تلك المرأة التي ، في فجر التكوين ، صمدت بوجه الحية الناقعة السم في جسم الانسانية . انها العذراء . حواء الاولى كانت مصدر الموت ، وحواء الثانية هي ينبوع الحياة .

ادم وحواء ، مالا عن سنة الخالق ، فحلّ بهما العقاب وحلّ من بعدهما بقافلة البشرية . ولكنها قافلة يقودها سيد يشاء لها الخلاص . ويوجه ذلك النزاع الاول الاثيم ، أنبت فرعاً آخر هو فرع تلك المرأة العجيبة ، قاهرة الثعبان سأضع عداء بينك وبين المرأة ، بين نسلك ونسلها . انها ستسحق رأسك (تكوين ٣ : ١٥) .

وهذه المرأة الطالعة مع صباح الخليقة هي العذراء مريم . بذا قال الآباء الكنيسة ومفكروها عبر الاجيال فيعلن القديس يوستينوس : « من تلك العذراء سيولد ذاك الذي اعده الله لهلاك الثعبان وتبّاعه[1] » . ويعين القديس ايريناوس « ذلك الثعبان الناهش » القتّال ، المبعد الانسان عن درب الله ، كان له الظفر الى ان كان ابن مريم فسحق راسه[2] . ويقول القديس قبريانوس : « ذاك من الوحي ان نسل المرأة سيحطم راس الحية[3] . ويصيب ابيفانوس قولاً اذ يشهد ان وعد الظفر الفريد لم يُصنع لحواء بل لنسل مريم الطاهر القديس »[4] . وايرونيموس القديس الضخم الصوت ، ينادي بالمرأة الموعود بها في الكتاب انها هي هي التي تكلم عنها بولس في رسالته الى الغلاطيين[5] . وهكذا قال القديس برنردوس ايضاً .

١) موسوعة الاباء اليونان ٦/٢١١
٢) موسوعة الاباء اليونان ٧/٩٦٤
٣) موسوعة الاباء اللاتين ٤/٧٤٠
٤) موسوعة الاباء اليونان ٤٩/١٢٠
٥) موسوعة الاباء اللاتين ٣٠/٨٢-٨٣

هذه الشهادات لم تكن اعتبارات باطلة . فلقد جعل منها تعليم الكرسي الرسولي حقيقةً ان تقبل من بعد جدلًا ولا شكًا . اما أقربيوس التاسع في براته Ineffabilis Deus بان اباء الكنيسة وكتابها علّموا هذه الحقيقة واعلنوا ان وعد سفر التكوين هو وعد بمخلص عتيد الى العالم وبامه الطوباوية العذراء مريم وبعدائها للحية . — اما اعلان بيوس الثاني عشر المالك سعيدًا في براته Munificentissimus Deus ، ان اباء الكنيسة منذ الجيل الثاني عرفوا في مريم وجه حواء الثانية ، حاملة الظفر ، قائدة المعسكر الجديد الى غار النصر النهائي على قوى الشر التي تهدد البشرية . انها فوق الزوابع والعواصف ، وانها لا تُمس ، وانها تقطن افاق الجمال حيث تُنادى باسمها ! انك الجمال كله يا مريم.

٥

رأى اشعيا ، من اغوار مخيلته الجبارة ، عذراء ، تحبل وتلد ابنًا يسمّى عمانوئيل (٧/١٤)؛ وهي مرة اخرى نجد فيها رسم تلك المرأة السرية برفقة «الولد العجيب» . انه ابنها ، هي امه ، ولم تعرف رجلًا بل عاشت في جوّ من الطهر ما عرفته مخلوقة قبلها وبعدها ، لانها الوحيدة بين النساء ، لانها ام وعذراء حقًا ، طاهرة الذيل وهي والدة . انها اعجوبة الخلائق وتحفتها . انها المعطية الخلاص لبيت داود ، ذلك الخلاص الذي انفجر وحيًا على عيني اشعيا المنذهلتين قبل ان ينفجر حقيقةً ملموسة على اعين التاريخ .

٥

ثم نسير صعدًا بين اسفار النبيين من العهد القديم ، وقد علاها الغموض ، فلا رسم للعذراء واضح الملامح ، بيّن التقاطيع ، من خلال تلك السطور ، واذا بنا على عتبة العهد الجديد نصغي الى هتاف الملاك البشير : «السلام لك يا مملوءة نعمةً ! » ونص الانجيل باللغة اليونانية فيه من القوة ما يجعل العذراء امتلاءً من النعم لا مزيد عليه .

هذا الامتلاء هو نتيجة علاقة العذراء بابنها ، هي امه وهي مشاركته له في جميع مراحل حياته ، منذ ما وضعته عاريًا على حضيض المذود الى الساعة التي رأته فيها عاريًا على خشبة الصليب . وعندما استندت الكنيسة على السلام

١) مجموعة الاباء اللاتين ٦٣/١٨٣

الملائكي لتعلن عقيدة الانتقال ، اعلنت ضمنا بان جسم العذراء الذي ما عرف خطيئة هو اهل ليرافق روحها الى خدر السعادة المطلقة .

ويزيد الملاك المبشر : « مباركة انت ومباركة ثمرة بطنك » بركة متبادلة بين الام والابن ، تتجاوب من خلالها النعمة التي تجعل من ام الاله وريثة اولى عطايا الاله .

واذا بكلام اليصابات يلقي نورًا جديدًا على سلام الملاك . أما هتفت : « أنى لي ان تأتيني امّ ربي ؟ » . اية قداسة واي كمال يتطلب هذا اللقب ! ولقد كانت مريم كمال القداسة البشرية ، أبدعها الله أقرب ما يكون من صورته ومثاله ، واسبغ عليها دون عدّ وحساب عطاياه الازلية ، وجعلها باقصى ما تستطيع الخليقة ان تجعل وتحمل من جمال الخالق . لقد قال لتلاميذه مرةً : كونوا كاملين كما ان ابانا السماوي كامل هو . وهذا الكمال افاضه كله على من أعدت منذ موعد البشر مع الارض ان تكون امه .

لم يستطع الشر ان يخدش كيان يسوع ولم يستطع احد ان يثبت عليه خطيئة . وفي جوفا الموبوء بنفثات التنين الهائل وسمومه ، يسوع ما اشتم غير عطور القداسة . وكذلك امه . هي المرأة الجبارة التي تلتحمها يوحنا في رؤياه ، ما جرحت قداستها اظافر الثعبان ، ذي السبعة الرؤوس : « فأعطيت المرأة جناحي النسر العظيم ، لتطير الى البرية ، الى خلوتها ، بعيدا عن وجه الحية ؛ حيث تعال زمانا ، وأزمنة ، ونصف زمان . فالقت الحيّة من فيها ، في إثر المرأة ، ماء كالسّيل ، لتُهلكها به . فاغاثت الارضُ المرأة ؛ فتحت الارضُ فاها وابتلعت السّيل الذي القاه التنين من فيه ... » (رؤيا ١٢ : ١٤—١٦) .

على نصوص مثل الذي ذكرنا شيّد التقليد المسيحي اعتقاده الراسخ بعقيدة الحبل بالعذراء دون دنس . وكان يوسعنا درس هذه النصوص درساً معمّقاً ولكنه عمل عقيم في هذه الساعة من هذه السنة حيث يترك المسيحي جفاف العلم والتمحيص ليتطلع بالحب والشوق نحو ذلك الوجه الرائع ، وجه العذراء .

الحامل التعاري ، المظل الآن من شرفة الخلود على وادي الدموع ، وادي البنين المنشدين من غربة المنفى وجه امهم الحبيب .

○

كانت مريم المخلوقة الاولى التي سبقت الى استحقاقات الفداء ؛ وكما دفع المسيح دماءه ثمناً عنا ، دفع عنها ايضاً دماءه ولم تكن بعد في الوجود ، حافظاً اياها من وصمة الخطيئة . هي الاولى في لائحة الخلاص ولقد هتفت بذلك في سكرة ذلك السلام الروحي الذي غمر نفسها : « تعظّم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي ! » .

وهذا الاعتقاد بعقيدة الحبل بها دون دنس لم يصادف اجماع اللاهوتيين في الكنيسة على ممرّ الاجيال . لقد اصطدموا بصعوبة قادتهم الى الخطأ . في فهم الحقيقة التي اصبحت ميراثاً كان للكنيسة منه كنوز وكنوز ، لقد اعتقدوا ان العذراء لم تكن بحاجة الى الفداء لانها عُصمت من الخطيئة الاصلية وكيف تظل خليقة واحدة خارج تأثير الفداء . وهذه الصعوبة ذلّلها الايمان المسيحي حين أعلن ان العذراء قد فُديت من الخطيئة الاصلية قبل ان تولد . ولذلك فقد وُلدت معصومة بريئة .

○

مائة سنة مرت على اعلان العقيدة التي نعيّد تذكارها اليوم . وكيف يمرّ التذكار المئوي ولا يكون عيداً من ابهى افراح السنين . لقد كان ذلك حدثاً ، لمئة عام مضت . وانه حدث اليوم تتداعى الى لقائه اشواق القلوب المسيحية قاطبةً من كل بلد ودار . هي العذراء تنادي بنيها فاذا بهم يتألبون جماعات جماعات على اقدامها وانظارهم ، وقد انقلبها غبرة الشر والموت في العالم ، عالقة بذلك المحيا البهي ، بتلك الام التي هدّمت امام بنيها اسوار الشر ، وحطمت مغاليق الموت . . .

من انظارها تكتسب انظارهم تلك الطهارة المحرّرة ، ومن روعة شبابها الابدي يستمدون البطولة التي لا تشيخ ويصعدون جبل الحياة الى قمته ولا يخافون صخوراً واشواكاً . وترافقهم من اعالي السماء عين الام الساهرة ، انها سلطانة الامل وسلطانة البحر ! وانهم هم الراحلون في سفر بين اهوال النوء الشديد ، يحدقون اليها ، الى تلك النجمة التي لا يغوّرها ضباب وغيوم ؛ انها قائدة مركب الكنيسة الى شاطئ الطمأنينة والسلام !